المحاضرة02

نشأة الأدب الصوفي

قبل أن تنتشر لفظة (تصّوّف) وتتأصّل في التّاريخ الإسلامي،ابتداء من القرن الثّاني الهجري،كان سائد قبلها مصطلح الزّهد،فكثر الحديث عنه وعن الزّهاد وكبار العبّاد من الصّحابة والتّابعين،لذلك« يُعدّ الزهد هو أول حركات التّصوف في الإسلام،وقد انتشر في عصر الرّسولﷺ وبعده ،وخاصّة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف أنذاك»[1]فبداية التّصوف إذن كانت زهدا،لكن السّؤال الذي يطرح هنا هو،ماهي الدّوافع والأسباب التي أدّت إلى ظهور الحركة الزهدية في بداية الدّعوة الإسلامية؟.

يرى الدكتور عاطف جودت نصر أنّ أمامنا تفسيرين أساسيين« أحدهما ديني هو ما يذهب إليه"جولد تسيهر" من أنّ نزعة الزّهد التي سيطرت على التّصوّف في القرن الهجري الأوّل قد ارتبطت بالمبالغة في الشّعور بالخطيئة والرّعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة.والتّفسير الثّاني وهو ما يذهب إليه "نيكلسون"حيث يأخذ بالأسباب التّاريخية والمؤثرات السّياسية التي شجّعت على ظهور الزّهد وانتشاره ... إذ رأى أن الحروب الأهلية الطويلة الدامية، والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية ... والاستهانة بالمسائل الخلقية وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين،عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها»[2] فقد يكون الرأي الذي ذهب إليه"جولد تسيهر" فيه شيء من الصواب لكنه أهمل جانب الثواب في الإسلام وركز على جانب الخوف من العقاب،أما رأي"نيكلسون" فيفنده الكاتب جملة وتفصيلا معتبرا أنه إذا سلمنا بحتمية هذا الرأي فإن جميع الذين خضعوا لهذه الظروف زهاداً ، والأمر ليس كذلك،لأن هناك أنماطا شتى من الناس خضعوا لنفس الدوافع الخارجية العامة، لكنهم ليسوا زهادا[3]،وبالتالي«فهذه العوامل والدوافع الخارجية المشار إليها ليست هي المكون الوحيد للزهد، حيث يبدو الزهد موقفا ينبثق من اختيار شخصي تتحدد وفقه العوامل والدوافع،إذ الزهد في معناه هو الرفض أي الرغبة عن،وهذه الرغبة عن وليدة ذاتية أصيلة في الزاهد لأنه يرفض ويرغب عن ، من أجل أنم يرغب في وأن يختار من بين الدوافع دافعا يمنحه القيمة المطلقة»[4].

وإذا سلمنا بأن بداية التصوف كانت زهدا فإننا نجد أن هناك بعض الفروق بين مفهومين أي بين مفهوم التصوف والزهد من حيث المعنى« فالتصوف زهد في الدنيا لكسب رضاء الله ، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة ، والتصوف دخول في جمال الملإ الأعلى وروحه ورحمته ،والزهد دخول في مجال التقوى خوفا من عذاب الله ونقمته وجبروته ، والتصوف فلسفة روحية في الإسلام،والزهد منهج عملي من مناهج

بعض المسلمين وله نظائر في الديانات القديمة»[5] فاللفظتان تلتقيان إذن في البعد عن الدنيا والتقشف فينها طاعة لله سبحانه ، وتفترقان في أن التصوف فرار من الدنيا وملذاتها طاعة لله وليس خوفا من عذابه أو طمعا في جنته ، فبالرغم من التقارب الموجود بين اللفظتين إلا أن الخلط بينهما يظل واردا عند عامة الناس وحتى عند بعض الباحثين ، فهناك مثلا من يجمع بين التصوف والزهد،وبالتالي بين الصوفي والزاهد أو بين الصوفي والعابد« فإذا سمعوا شخصا كثير العبادة قال عنه إنّه صوفي ،ولا ريب أنّ الصّوفي كثير العبادة ،ولكن قد نجد أشخاصا كثيرين يقيمون الصّلوات المفروضة ويكثرون من النّوافل ويداومون على العبادة،ولا يكون معنى ذلك أنّهم من الصّوفية،ولخلط النّاس بين الزّاهد والعابد والصّوفي حاول ابن سيناء أن يفرّق بينهم وبين أهداف كلّ منهم فيقول:...إنّ المعرض عن متاع الدّنيا وطيّباتها يُخصّ باسم الزّاهد،والمواظب على فعل العبادات من القيام والصّيام ونحوهما يُخصّ باسم العابد،والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحقّ في سرّه يُخصّ باسم العارف»[6].

والعارف هي مرتبة من المراتب العليا التي يرتقي فيها الصّوفي،هكذا فرّق ابن سيناء بين هذه المصطلحات الثّلاث،ويبقى أنّ« هناك من اتّجه في تعريفه إلى التّسوية بين الصّوفي والزّاهد في المفهوم،وحينما يسمع كثير من النّاس كلمة (الصوفي) يُفهم منها معنى الزّاهد وليس من شكّ في أنّ الصّوفي لا يتعلّق قلبه بالدّنيا وهو شديد الرّغبة عنها وعن ترفها وملذّاتها،بيد أنّ الزهد في الدّنيا شيء والتّصوّف شيء آخر فلا يلزم من كون الصّوفي زاهدا أن يكون التّصوف هو الزّهد»[7].

والزهد نفسه درجات ينقسم الزّهاد على إثرها إلى مراتب،حسبما ذهب إليه الكثير من العلماء،فأبو حامد الغزالي قدّم له تحليلا دقيقا حيث« توسّع في تحليل الزّهد وبيان حقيقته وفضيلته ودرجاته وأقسامه واشترط فيه مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه،واشترط غي المرغوب عنه أن يكون مرغوبا فيه،والزّاهد المطلق عنده هو من يرغب عن كلّ ما سو الله،والزّهد عند الغزالي درجات بحسب المرغوب فيه والمرغوب عنه،فهناك زهد الخائفين الذين رغبوا في النّجاة من النّار ومن سائر الآلام،وأعلى منه زهد الرّاجين وهو الزّهد رغبة في النّعيم،وهذا زهد المحبّين والعارفين،ففي الدّرجة الدّنيا زهد الخوف وفي الدّرجة الوسطى زهد الرّجاء،وأعلاه الزّهد الناشئ عن المحبّة لا رغبة عن النّار ولا رغبة في النّعيم»[8].

وتبدو هذه المرتبة الأخيرة من مراتب الزهد هي الأقرب إلى التّصوّف ويذهب "السّراج الطّوسي" و "رويم البغدادي" في تبيين مراتب الزّاهدين مذاهبَ أخرى« فالسّراج وهو من صوفية القرن الثّالث الهجري يقسّم الزّاهدين إلى ثلاثة طبقات ، فمنهم المبتدئون الذين خلت أيديهم من الأملاك وخلت قلوبهم ممّا منه أيديهم،وفرقة منهم متحقّقون في الزّهد،ووصفهم ما أجاب رويم بن أحمد البغدادي،وهو من صوفية الطّبقة الثّانية،بترك حظوظ النّفس من جميع ما في الدّنيا...لأنّ في الزهد حظا للنّفس بما فيه من الرّاحة

والثّناء،والمحمدة واتّخاذ الجاه عند النّاس فمن زهد في هذه الحظوظ فهو متحقّق في زهده،والفرقة الثّالثة...زهدوا في زهدهم وتابوا عنه»[9]. فالتصوف مرتبة متقدمة عن الزهد، كما أن هناك تعاريف كثيرة تعرضت لتعريف الزهد والزاهد و عن الفرق بين الزهد والتصوف لا يتسع المجال هنا لذكرها جميعا ، لكن يبقى من المفيد أن نعلم أن هناك إجماعا للدارسين قديما وحديثا على« أن التصوف الإسلامي كان وليد حركة الزهد التي وجدت في البصرة والكوفة،كما يجمعون أيضا على أن زهاد الكوفة والبصرة كان يغلب عليهم لباس الصوف ، ومع ذلك لم نجد تعريفا متفقا عليه لدى كثير منهم،ذلك لأن بعضهم نظر إلى الأصل اللغوي للكلمة ومصدرها الاشتقاقي،ونظر بعضهم إلى لباس الصوفي وزيه فنسب اللفظ إليه،ولذلك لا نلتقي في هذا المقام بتعريف واحد متفق عليه عند الصوفي»[10] .

ولعل كثرة التعاريف باختلافها الظاهر في تحديد مفهوم التصوف جعل الصوفيين أنفسهم والباحثين عموما يختلفون أيضا في تحديد المعنى الدقيق لكلمة صوفي ، وهذا راجع بطبيعة الحال لكثرة تلك التعريفات التي تناولت مصطلح التصوف وصوفي وتنوعها ، فقد«حاول الأستاذ نيكلسون أن يجمع ما يربو عن مائة تعريف للتصوف ورجا من ذلك أن تدله التعاريف بعد ترتيبها الزمني على تطورات التصوف الإسلامي ، فلم يأت عمله بنتيجة قيمة وقد أحس هو نفسه بعقم الاتجاه الذي اتجهه فعاد وصرح فيما بعد : بأن التعاريف المتعددة للصوفية التي وردت في الكتب العربية والفارسية وإن كانت ذات فائدة تاريخية فإن أهميتها الرئيسية في أنها تعرض الصوفية على أنها غير ممكن تحديدها»[11] .

وحتى يدلل نيكلسون على مدى هذه الصعوبة التي واجهته في الوصول إلى تعريف جامع مانع للتصوف ، أورد قصة ذكرها "جلال الدين الرومي" تصور بدقة وبشيء من الطرافة اختلاف العلماء والمتصوفة حول التعريف واحد للتصوف ومن المفيد هنا أن نورد تلك القصة- على طولها- فهي توضح هذا الاختلاف، يروي جلال الدين الرومي«قصة فيل عرضه بعض الهندوسيين في حجرة مظلمة ، فتجمع الناس ليخبروه ولكن ظلام المكان منعهم من أن يبصروه فلمسوه بأيديهم ليعلموا على أي مثال هو؟فلمس بعضهم خرطومه فقال : إنه يشبه أنبوب الماء ، وبعضهم أذنه فقال : لا بد أن عيونه كمروحة كبيرة؟ ولمس بعضهم رجله فحسب أنه كالسارية ، ولمس بعضهم ظهره فأعلن أن الحيوان لا بد أن يشبه العرش العظيم»[12]. وصعوبة التعرف على هذا الفيل تكمن في أن كل واحد راح يعرفه كيفما شعر به وأحسه،فجاءت تعاريفهم- على كثرتها- مختلفة ومخالفة للواقع،وهذا حال المتصوفة حين يعرضون للتصوف بالتعريف، وهم لا يستطيعون«إلا أن يحاولوا التعبير عما أحسته نفوسهم ، ولن يكون مفهوم يضم كل خافية من الشعور الديني المستكن لكل فرد ، وقد عبر الصوفية عن هذه الصعوبة في وضع حد لما يشعرون به في مواجيدهم ومشاهداتهم وأبانوا بأن التجربة الصوفية باعتبارها ثمرة دفعية مباشرة بغير وسائط من مقدمات وقضايا وبراهين أو تجريب ، فهو إدراك ذاتي لا يمكن تعميمه»[13] . لذلك نجد أبا القاسم القشيري وهو أحد كبار الصوفية يذهب في تعريفه لمفهوم

صوفي وصوفية مذاهب شتى ، يقول في ذلك«يقال : رجل صوفي وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل لذلك يقال له: متصوف،وللجماعة المتصوفة وليس يشهد لهذا الاسم من حيث الغربية قياس ولا اشتقاق،والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال : إنه من الصوف،لهذا يقال تصوف إذا لبس الصوف،كما يقال تقمص إذا لبس القميص،فذلك وجه،ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف!ومن قال إنه مشتق من الصفاء،ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي،ومن قال إنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة،وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح،ولكن اللغة لا تقتصي هذه النسبة،ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يُحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق»[14] فالملاحظ أن القشيري يرد جميع الآراء القائلة بنسبة الصوفي إلى الصوف أو الصفاء أو الصف ليؤكد أن هذه الطائفة أشهر من أن تحتاج إلى اقتباس.

وكل تلك الآراء التي عرضها القشيري ولم يأخذ بها،«يرجحها السراج في اللّمع،فقد ذهب إلى أنهم نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم يُنسبوا إلى نوع من أنواع العلوم،والأحوال التي هم بها مترسمون،لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المتنسكين،وقد علل السراج ذلك بأن القرآن نسب أتباع المسيح إلى لبس البياض في قوله﴿ **وَإِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ** ﴾ [المائدة:112]فنسبوا إلى ذلك ولم ينسبوا إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال»[15].

ويذهب الكثير من العلماء مع الرأي القائل بنسبة الصوفية إلى الصوف أو الصفة أو الصف ، يقول "الكلاباذي"« ومن لبسهم وزيهم سمُّوا صوفية لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه وحسن منظره ، وإنما لبسوا لستر العورة فتجزوا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف»[16].فلبسهم الصوف والاكتفاء بالخشن من الشعر دليل على تمسكهم وزهدهم في الدنيا« قال الحسن البصري : كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ويأكل من الشجرة ويبيت حيث أمسى،وقال أبو موسى:كان النبي ﷺ يلبس الصوف ويركب الحمار ويأتي مدعاة الضعيف . قال الحسن البصري : لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصوف »[17] يعني ذلك أنّ لبس الصّوف كان من صفات الأنبياء،وبعض الصّحابة رضوان الله عليهم،فأحوالهم-أي الصّوفية-كلّها كانت« كأحوال أهل الصّفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ فإنّهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم»[18]، فلازم هؤلاء مسجد رسول الله،وانقطعوا فيه للعبادة،وكان المسلمون يتصدّقون عليهم بما يقيم أودهم ويُقوّهم على العبادة،وفي ذلك شابه الصّوفية أهل الصّفة ونُسبوا إليهم« ذلك أنّهم قوم قد تركوا الدّنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد وأجاعوا الأكباد وأَعْروا الأجساد ولم يأخذوا من الدّنيا إلاّ ما لا يجوز تركه ،من ستر عورة ،وسدّ جوعة.فلخروجهم عن الأوطان سُمُوا غُرباء ولكثرة أسفارهم سمُّوا سيّاحين»[19].

أمّا الرّأي القائل بنسبة الصّوفيّة إلى الصّف،أي أنّهم في المقام الأول بين يدي الله سبحانه وتعالى،فذلك انطلاقا من معاملاتهم وأخلاقهم وسلوكهم مع الله« فبارتفاع هممهم إليه وإقبالهم عليه،ووقوفهم بسرائرهم بين يديه»[20]استحقّوا أن يكونوا في الصّف الأول .

وعلى الرّغم من كثرة هذه التّعريفات واختلافها في الظّاهر،إلاّ أنّنا نلمس فيها بعض الاتفاق في المعنى فإن كانت« الألفاظ متغايرة في الظّاهر فإنّ المعاني متّفقة،لأنّها إن أخذت من الصّفاء والصّفوة كانت صَفَويَّة،وإن أُضيفت إلى الصّف كانت أو الصُّفة كانت صَفِّية أو صُفِّية،ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصّوفية وزيادتها في لفظ الصَّفيّة و الصُّفة إنّما كانت من تداول الألسن،وإن جعل مأخذه من الصُّوف استقام اللّفظ وصحّت العبارة من حيث اللّغة»[21] ،ولعلّ هذه الصّعوبة التي تحول دون الوصول إلى تعريف دقيق وشامل لمفهوم التّصوُّف مردّه إلى تاريخ الحركة الصّوفيّة نفسها الحافلة بالأحداث،فلم تمنع من احتكاك التّصوّف الإسلامي بغيره من الأفكار والفلسفات التي كانت رائجة في العالم العربي والإسلامي، إثر اتّساع رقعة الدّولة الإسلاميّة،واطّلاع العرب على ثقافات ومعتقدات جديدة تأثر بها المتصوّفة خاصّة،وربّما تبنّى بعضهم الكثير من تلك المفاهيم،فنزعة الزهد في الدنيا ونبذ حطامها موجودة في كثير من المذاهب« ففي فلسفة الهنود زهد وكذلك في فلسفة الإسكندرانيّين،وفي المسيحيّة والإسلام،...وربّما أخذ بعض مبادئه ومناهجه عن بعضها وشارك سائرَها في بعض مبادئه ومناهجه»[22].

لعل هذا الاحتكاك يشكل عائقا في الوصول إلى تعريف دقيق للتصّوف،أمّا ابن خلدون فإنّه يعزو تلك الصّعوبة في وضع تعريف شامل للتصوّف إلى سببين رئيسين«الأول:إنّ هذه التّعريفات لم يقصد بها الصّوفية تعريف التّصوّف تعريفا علميًّا شاملا يستوعب كلَّ صوره وجزئيّاته،بل قصدوا بها التّعبير عن أحوالهم الخاصّة في لحظة معيّنة محدودة،فهي تعبير عن مواجيدهم وأحوالهم ومقاماتهم التي يتدرّجون فيها»[23]أمّا السّبب الثّاني فقد سبق الحديث عنه والمتمثل في احتكاك العرب بغيرهم من الثّقافات وذلك التّطور السّريع الذي عرفته الدولة الإسلامية كلّ ذلك أدى إلى تعرض كلمة التّصوف إلى« هذا التّطور فكانت تتّسع فتكتسب بمرور الزمن معاني جديدة تُبعدها شيئا فشيئا عن مدلولها الذي عُرف بها يوم وجدت »[24] إذن فالمعاني الجديدة التي طرأت على هذه الكلمة يرجعها ابن خلدون إلى امتداد الحياة بها وبالتالي لم يعد ينطبق عليها مفهوم واحد.

ومع ذلك فإننا نقع على بعض التعريفات المتقاربة والتي تستوعب بشيء من الدقة بعض صور التصوف ، يمكن إيراد بعضها إلى غاية الوصول إلى تعريف جامع يُطمأن إليه،والملاحظ أن تلك التعريفات تكاد تتفق على أن التصوف (خُلُقٌ) وهوا تجاه شائع عند الصوفية ، ويبدو ذلك في قول أبي حفص الحداد (ت 265 هـ) « التصوف تمام الأدب . ويقول أبو الحسين النوري (ت265 هـ) : ليس التصوف رسما ولا علما

ولكنه خُلق لأنه لو كان رسما يحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما يحصل بالتعليم ، ولكنه تخلُّق بأخلاق الله،ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم . ويقول أبو بكر الكتاني (ت233هـ) التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف.ولما سئل أبو محمد الحريري (ت331هـ) عن التصوف قال : هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دنيء»[25] . فالملاحظ أن أغلب هذه الآراء اتفقت أو تكاد تتفق على أن التصوف هو خلق، أي حسن التخلق مع الله سبحانه في الطاعات والعبادات وحسن التخلق مع عباده.

أما ابن خلدون فيعرف التصوف بشكل لا يختلف كثيرا عن المفاهيم السابقة فيرى أن التصوف هو«العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والانقطاع عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم صوفية»[26] . فالمتصوفة - حسب ابن خلدون- هم الذين يتميزون عن بقية الخلق بكثرة خلواتهم وانقطاعهم للعبادة حين انشغل الناس بمتع الحياة الدنيا ، وقد اختصر أبو بكر الكتاني (ت322هـ) مفهوم التصوف في قوله : « [التصوف صفاء ومشاهدة]،والحق أن هذه العبارة الأخيرة على ما فيها من إيجاز تقدم لنا تعريفا شاملا متكاملا للتصوف باعتباره مذهبا في المعرفة له وسيلته وينتهي إلى غاية ، أما الوسيلة فهي الصفاء،وأما الغاية فهي المشاهدة،فالوسيلة تؤدي إلى تصفية القلب بقهر الشهوات ومغالبة الهوى وهي الطريقة والغاية هي الوصول إلى معرفة الله بتحصيل صفات الكمال والقوى الروحية التي تؤدي إلى الوصول إلى الله»[27] .

ويبدو أن هذا التعريف الأخير الذي أورده الكتاني أقرب تعريف يلخص لنا بشيء من الدقة مفهوم التصوف ووسيلته والغاية منه .

المحاضرة12[1]

أعلام الأدب الصوفي

الشّيخ أبو مدين شعيب التلمساني

عرف العالم العربي والإسلامي في بداية القرن الثّاني الهجري،حركة دينيّة لم يعهدها المسلمون على أيّام رسول اللهﷺ وصحابته الأطهار،اتجاهٌ فهمَ أصحابه الدِّينَ فهماً جديدا غير مألوف،فعبدوا الله سبحانه على طريقتهم غير المألوفة تلك،فكان لهذا الاتّجاه،ولهذا الفهم الجديد أن ينتشر في ربوع العالم الإسلامي قاطبة،وأن يستمرّ بالشّكل الذي عُرف به عصرئذ،مع تغيّرات في بعض مفاهيمه،هي نتاج للامتزاج الثقافي والحضاري ونتاج تلك المسيرة الطّويلة الحافلة،والتي استمرّت إلى نهايات القرن السّابع أو الثّامن الهجري.

وقد لَقي أصحاب هذه الحركة - في سبيل أن تعمَّ وتنتشرَ -العنت الكبير والجهد الكثير،بل وصل الخطر المحدق بهم حدّ قتل بعضهم،كما حدث لأبي منصور الحلاّج،والسّهروردي وغيرهما..بسبب تلك المعارضة الكبيرة،وذلك الرّفض المستمرّ لهذا المذهب من طرف الخاصّة والعامّة.ومع كلّ تلك المعارضة وذلك الرّفض قُدّر لهذه الحركة أتنتشر وتزدهر،فعرفت أصولها ومبادؤها التي تقوم عليها،وصارت لها أقطابٌ ومريدون،فذاعت في ربوع العالم الإسلامي كأيّ دعوة أو فكرة أو فلسفة جديدة لا يتسنّى لها القبول من طرف الآخر ثم الانتشار إلاّ بعد تضحيّات جسام.

إنّها الحركة الصّوفية هذه الحركة التي كان من أبرز مشايخها وأقطابها في شمال إفريقيا والأندلس، القطب الرباني سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي«الشّيخ الفقيه المحقّق الواصل القطب شيخ مشايخ الإسلام في عصره،إمام العُبّاد والزّهّاد وخاصّة الخلصاء من فضلاء العُبّاد..من ناحية اشبيليا ومن حُصين يُقال له "منتوجب" فتح الله عليه بمواهب قلبيّة وأسرارٍ ربّانيّة استفادها بالتّوجّه والعمل وارتقى إلى غايةِ ما يُؤمّل»[28]ولقد اختلفت المصادر في التّحديد الدّقيق لتاريخ مولده، فذهب بعضُ المؤرّخين إلى أنّ عام ولادته كان سنة(510هـ - 1116م)وقيل سنة(514هـ - 1120م)،والأرجح أنّه ولد سنة (509هـ - 1115م)استنادا إلى رواية المؤرّخ "محمد بن حمدون البنّاني"حين تعرّض لوفاته فقال: «توفي سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي في سنة أربعٍ وتسعين وخمسمائة، عن نحو خمسٍ وثمانين سنة.. »[29] أي المولد كان في سنة تسعٍ وخمسمائة،وقد كان منذ نشأته فتى كثير التّأمّل ،تشغل فكره أسئلةٌ كثيرة في مختلف القضايا،وكانت نفسه الصّغيرة تتوق للتّديّن والعبادة،وقد نشأ أبو مدين يتيما« وكان والده الذي توفي في عهدٍ مبكّرة من حياة شيخنا صاحب غنم ،ولم تكن الغنم من الكثرة بحيث تسمح باستئجار راع لها ،وكان

شعيب أصغر إخوته ،فكلّفوه بأن يقوم على رعيها،وكانت هذه الأغنام تكلّفه جُهدا وتشقّ عليه»[30] فلم يكن له بدّ سوى أن يقوم على رعيها قدر استطاعته،لكنّ نفسه التّواقة إلى العلم والعبادة،كانت تدفعه للتّماطل في رعيها أحيانا والامتناع أحيانا أخرى،فهو لا يجد رغبة أو ميلا في فعل ذلك، بل كان كما قال متحدّثا عن نفسه«..كلّما رأيت من يُصلّي أو من يقرأ ،أعجبني ودنوت منه ،وأجد في نفسي غمّاً لأنّني لا أحفظ شيئا من القرآن ،ولا أعرف كيف أصلّي فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلّم القراءة والصّلاة،ففررت فلحقني أخي وبيده حربةٌ فقال لي:والله لئن لم ترجع لأقتلنّك.فرجعت وأقمت قليلاً »[31] لكنّ نفسه ظلّت تهفو إلى مبتغاها،ولم تدم الإقامة طويلا حتّى قويت عزيمته مرّة أخرى على الفرار مجددا، يقول: « فأسريت ليلة وأخذت في طريق آخر فأدركني أخي بعد طلوع الفجر،فسلّ سيفَه عليّ وقال لي: والله لأقتلنّك وأستريح منك! فَعَلَانِي بسيفه ليضربني- فتلقّيته بعود كان بيدي فانكسر سيفه وتطاير قطعا ،فلمّا رأى ذلك قال لي:يا أخي اذهب حيث شئت.. »[32].

من هذا الموقف الغريب تبدأ رحلة شيخنا في طلب العلم ،رحلة شاقّة مليئة بالمخاطر والمصاعب،لكن كل تلك الصّعوبات كانت تصطدم بإرادة صلبة،إرادة أبي مدين في حب العلم والمعرفة،فيواصل مسيرته الطويلة التي يلقى أثناءها شتّى أنواع المخاطر التي ينهار أمامها كبار النّفوس،ويقف أمامها مذهولين،ذوو العزائم الكبيرة،لكن الشّيخ كان أكبر نفسا وأقوى عزيمة،فيتوجه قصادا المغرب يقول:«فسرت ثلاثة أيّام..أو أربعة أيّام فلاحت لي كدية على البحر وعليها خيمة،فخرج إلي منها شيخ وليس عليه إلاّ ما يستر به عورته،فنظر إليّ وظنّ أنّي أسير فررت من أرض الرّوم،فسألني عن شأني فأخبرته.فأخذ حبلا وربط في طرفه مسمارا فرمى به في البحر فأخرج حوتا فشواه لي فأكلته،فأقمت عنده ثلاثة أيّام،كلّما جُعت رمى بالحبل والمسمار في البحر فيُخرج به حوتا فيشويه وآكله ،ثمّ بعد ذلك قال لي:أراك تروم أمرا،فارجع إلى الحاضرة فإنّ الله لا يعبدُ إلاّ بالعلم.فرجعت إلى "إشبيليا" ،ثم ذهبت إلى "شريس"ومن شريس إلى الجزيرة الخضراء،فجُزت البحر إلى "سبته"»[33] فبداية رحلته مليئة بالعجائب التي تنبئ على أنّ أبا مدين سيكون له شأن عظيم،وفي سبتة يقول:« كنت أجيرا للصيّادين،ثم ذهبت إلى مرّاكش،فدخلتها وأدخلني الأندلس معهم في جملة الأجناد،فكانوا يأكلون عطائي،ولا يعطونني منه إلاّ اليسير،فقيل لي:إن رأيت أن تتفرّغ لدينك فعليك بمدينة "فاس"فتوجّهت إليها ولزمت جامعها،وتعلّمت الوضوء والصّلاة،وكنت أجلس إلى حِلقِ الفقهاء والمذكرين فلا أثبت على شيء من كلامهم، إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي فسألت من هو؟فقيل لي:"أبو الحسن بن حرزهم"فأخبرته أني لا أحفظ إلاّ ما سمعته من خاصّته،فقال لي:هؤلاء يتكلّمون بأطراف ألسنتهم فلا يجوز كلامهم الآذان،وقصدت الله بكلامي فيخرج من القلب ويدخل القلب »[34].

كان ذلك الشّيخ الذي تأثّر به أبو مدين كثيرا،وأثّر في حياته ومستقبله بعد ذلك،هو الشّيخ"أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمّد بن عبد الله بن حرزهم"كان قد لقيه في فاس وأعجب به الشيخ كثيرا

فانكبّ«على تحصيل العلوم والمعارف منه في أوقات دروسه،وفي نفس الوقت أخذ يعمل نسّاخا للكتاب لدى النّسّاخين حتّى يحصل على ما يعيل به نفسه ويقيم أودهُ ويُصلح شؤونه المادّية »[35] فسمع كما قال «رعاية المحاسبي على أبي الحسن بن حرزهم،وكتاب السّنن لأبي عيسى الترمذي،على أبي الحسن بن غالب»[36].ولمّا رأى أبو مدين نفسه قد أخذ من علم الظاهر الكثير ، تاقت نفسه لعلم الباطن (التصوف) وبخاصة أن التّصوّف كان رائجا وأعلامه كثيرين«فأخذ طريقة التصوف عن أبي عبد الله الدقاق ، وأبي الحسن السلاوي»[37] ومن علماء التصوف الذين أثروا كثيرا في أبي مدين وتأثر بهم الشيخ الزاهد المتصوف "أبو يعزى يلنور ميمون " التلمساني الأصل هذا العلم الذي كانت له مع أبي مدين حوادث مثيرة واختبارات صعبة لا يقوى عليها إلا ذوو العزيمة والإرادة ، فمنذ سمع الناس يتحدثون بكرامات أبي يعزى حتى تاقت نفسه لزيارته يقول:« فذهبت إليه في جماعة توجهت لزيارته ، فلما وصلنا جبل إيروجان دخلنا على أبي يعزى وأقبل على الخلق دوني ، فلما أحضر الطعام منعني من الأكل فقعدت في ركن الدار ، فكلما أحضر الطعام وقمت إليه انتهرني فأقمت على تلك الحال ثلاثة أيام ، قام أبو يعزى من مكانه أتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهي فيه فلما رفعت رأسي نظرت فلم أر شيئا فصرت أعمى، فبقيت أبكي طول ليلتي،فلما أصبحت استدعاني وقال لي :[اقرب يا أندلسي] فدنوت منه فمسح بيديه على عيني فأبصرت،ثم مسح بيده على صدري وقال للحاضرين:هذا يكون له شأن عظيم،أو قال كلاما هذا معناه،فأذن لي في الانصراف »[38] .

فأول لقاء له بالشيخ أبي يعزى كان امتحانا زاده إصرارا وعزيمة على الاغتراف من هذا السر الروحي،فزاد إعجابه بالشيخ والتأثر به ، ويورد "التادلي" في التشوف الكثير من الأخبار والحوادث التي حدثت لأبي مدين مع أبي يعزى لكن أبا مدين استطاع أن يجتاز تلك الاختبارات .

كما كان لمؤلّفات الإمام الغزالي دور كبير في تكوين شخصيته يقول:«طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زمننا هذا فما رأيت أعجب من أبي يعزى،وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي»[39].

كان الشيخ أثناء تعلمه لعلوم القرآن والحديث «لا ينتقل إلى آية أو حديث آخر حتى يعمل بهما ، فيخرج إلى موضع بعيد منقطع عن الناس قريب من الساحل ، فإذا فتح الله له العمل بالآية والحديث عاد إلى فاس ليعمل على حديث وآية أخرى»[40].وبعد سنوات من الكد والاجتهاد اكتسب خلالها أبو مدين كثيرا من المعارف الصوفية والحقائق الربانية استأذن شيخه أبا يعزى في السفر لأداء فريضة الحج فأذن له .

1) رحلته إلى المشرق:

استعد الشيخ لهذه الرحلة إلى الشرق والتي سيكون لها أثر واضح في مسيرته الصوفية «فأخذ عن أعلام العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء وتعرف في عرفة بالشيخ "سيدي عبد القادر الجيلاني " فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الأحاديث ، وألبسه خرقة الصوفية وأودعه كثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الأكابر»[41]،وقد استفاد الشيخ كثيرا من هذه الرحلة كما كان للقائه بالشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني فضل كبير في بلورة شخصيته،رغم أن المصادر لم تحدثنا عن مدة إقامته بدقة«كما لم تحدثنا عن اتصالاته وتنقلاته التي لا نشك أنها كثيرة ومتنوعة ، سمحت له بالحصول على أسرار طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني وعلى علوم ومعارف أخرى ثقافية واجتماعية وسياسية ... وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى المشرق والتي دامت أكثر من عقدين من الزمن ، قفل أبو مدين شعيب راجعا إلى ديار المغرب العربي»[42] .

2) عودته إلى بجاية :

لما عاد أبو مدين من المشرق استقر في بجاية ، هذه المدينة التي تناولتها الدراسات منذ فجر التاريخ ووصفتها على أنّها مدينة للعلم والعلماء ، وقد أفاض "الغبريني" في كتابه " عنوان الدراية " في تبيين فضل هذه المدينة ودورها العلمي المتميز،فسحرته بجمالها وبموقعها الإستراتيجي وسماحة سكانها«وكان يفضلها على كثير من المدن ويقول فيها:إنها معينة على طلب الحلال،واستمر به المقام في بجاية وكانت حاله تزداد سموا ورفعة،ويرد عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب،وعد من جملة علمائها وكبار فقهائها وأئمتها،مهيبا معظما مكرما مشهودا له بالخير،وكان أهل زمانه عموما وسكان بجاية خصوصا، يعتقدون أن كل من قرأ عليه ساد ونبغ في العلوم،وانساق إليه العلم والجاه والنعمة والثراء وكان الآباء يوجهون أبناءهم لحضور مجلسه والاقتباس من معارفه وأسراره، فظهر- رحمه الله تعالى- فضله على كثير من الناس»[43].ولما رأى إقبال الدنيا عليه وسطوع نجمه خاف من تغير حاله وتبدل أحواله و«عزم على الخروج للجبال والفيافي والقفار والبعد عن المدن والقرى والأمصار للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى والتفكير في آياته وعظيم قدرته»[44] . فيكسر بذلك ميل نفسه إلى الدنيا ويخضعها لله سبحانه وتعالى ويسموبها عن التكبر والغرور ،واستمر الشيخ على هذه الحال«مشغولا بالتربية والإفادة والتعليم والعبادة والإقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن وقد ألّف بعض الفضلاء في كراماته»[45].

زيادة على ذلك فقد تميّز الشّيخ ونبغ في حلّ الكثير من عويص المسائل،والإجابة على أسئلة حيّرت النّبهاء والفطناء من العلماء ،فأتى بأبدع التّأويلات«ذكر بعضهم أنّه وقع نزاعٌ بين الطّلبة في قولهﷺ "إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنّة"فتردّد الكلام بينهم في أنّ مؤمنين إذا ماتا استحقّا الجنّة بكاملها،فصاروا إلى

مجلس الشّيخ أبي مدين ﷺليطّلعوا على ما عنده في المسألة فوجدوه جالسا يقرأ رسالة القشيري،فلمّا استقرّ بهم الجلوس سكت الشّيخ أبي مدين عن الكلام الذي كان فيه وقال:نُزِيل الإشكال عن أصحابنا،من غير أن يسألوه فقال لهم: إنّما أراد رسول اللهﷺ نصف جنّته،لأنّ لكل مؤمن جنّة تخصّه،فإذا مات أُعطي نصف جنّته وبعد الحشر يُعطى النّصف الثّاني ،ثمّ زاد في هذا الكلام وتكلّم كيف يُكشف للمؤمن عن مقعده في الجنّة،وتنعّمه بتلك الرّؤية،واتّصال الأرواح وغير ذلك ممّا فتح الله عليه»[46] وفي هذه الإجابة وهذا التّأويل البارع ما يدل على غزارة علم،وحضور بديهة لدى الشّيخ أبي مدين،وهذا قليل من كثير علمه فالمطّلع على كتب التّصوف التي تناولت الشيخ يجدها تعجّ بالكثير من مثل هذه المسائل.

أمّا كراماته ،فكثيرة تدل على علوِّ مقامه وعظيم شأنه،وقد بدأت تظهر عليه منذ كان صبيًّا صغيرا،وقد ذكر التّادلي وغيره من المؤرّخين أنّ رجلا«جاء إلى الشّيخ أبي مدين ليعترض عليه فأراد القارئ أن يقرأ عليه الكتاب فسكّته أبو مدين وقال له:أسكت،ثم التفت إلى الرّجل وقال له لِمَ جئتَ؟فقال له الرّجل جئتُ لأقتبس من أنوارك،فقال له ما الذي في كُمّك؟فقال له مصحف،فقال له أبومدين،أخرجه!فأخرجه من كُمّه،فقال له:اقرأ أوّل سطر .ففتحه وقرأ أوّل سطر منه فإذا هو﴿الذّيْنَ **كَذَّبُوا شُعَيْباًكَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيهاَ الذّيْنَ كَذَّبُوا شُعَيْباًكَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ**﴾[الأعراف :الآية92] فقال له أبو مدين: أمَا يكفيك هذا؟»[47].

ومن الكرامات التي تُروى عن الشّيخ«أنّه دخل يوما في بعض سياحته على عجوز في مغارة،فأقام عندها،فجاء ابنها آخر النّهار فسلّم عليه فقدّمت العجوز سفرة فيها صحن وخبز،فقعد الشّيخ والابن يأكلان فقال الابن: تمنّيت أن لو كان هذا كذا.فقال له الشّيخ:سمِّ الله وكل ما تمنّيت،فلم يزل يعدّ التّمني وهو يقول مقالته الأولى،واللّون الواحد ينقلب ألوانا كثيرة،ويجد طعم ما يتمنّى»[48] وما يدل على علوّ مرتبته وعظيم شأنه ما يرويه الشّيخ العارف ابن عربي أنّ الشّيخ أبا مدين«إذا خطر له خاطر في نفسه يجد جوابه مكتوبا في ثوبه الذي عليه، فخطر له يوما أن يُطلّق امرأتَه وكان بحضور العارف"أبي العبّاس الخشّاب"،فرأى مخطوطا في ثوب الشّيخ(أمسك عليك زوجك) »[49].

هذه بعض أمثلة من كرامات الشّيخ،وهي-كما سبقت الإشارة إلى ذلك -كثيرة ومثيرة لكن، لا الوقت ولا المجال يتّسعان لبسطها وإيرادها جميعاً،وحسبنا بما نعتقد أنّه يُظهر ولاية الشّيخ وعلوّ مقامه.وكرامة الأولياء حق،وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشّريفة،على عكس ما يتبادر إلى أذهان بعض المشكّكين الذين يردُّون ذلك إلى ضرب من السّحر والشعوذة أو إلى أمراض نفسيّة وهلوسات وتخيُّلات تصيب المريدين خاصّة،أومن يعتقدون في تلك الكرامات من الأتباع.والكرامة كما يقول "ابن قنفذ"«ليست من شرط حصول الولاية فقد تحصل الكرامة ، لكن إن وقعت من ولي فهي دالة على صدق عبادته وعلو مكانه بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه السلام ، وإلا فهي خذلان من الشيطان »[50]

معنى ذلك أنه ليس كل الأولياء تظهر لهم الكرامات ، وأنه ليس كل من ظهرت له كرامة يعتبر وليا ، وبالتالي « لا يستدل على الولاية بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان ، وإنما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية ... ولا ينكر الكرامة إلا معاند محروم سيء الاعتقاد وكثير الانتقاد»[51] إذن فالكرامة الحقة الصادقة التي تهدي الضال الحيران وتعين المرأ على دينه تلك التي تصدر عن ولي طائع لله تعالى « فمن امتثل أوامر الله تعالى واجتنب نواهيه ورزق الخوف من الله تعالى ، لا من خلقه واجتهد في طاعته جل وعلا وبحث عن أمر كسبه ووقف عند ما حد له ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه فهو الصالح وأعلى درجة من هذا حصول الورع التام وترك الطمع وبغض الدنيا ومن تمسك بها والفرار من دواعيها ومن أهلها والقناعة باليسير منها ، ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى من المماليك »[52].

ولقد جاهد الشيخ أبو مدين جهادا مضنيا ارتقى به إلى أعلى المقامات وتحلى بأكرم الصفات فاستحق لقب الولاية والقطبية ، فقد كان منذ نشأته يتحلى«بصفات جليلة قلما تتوفر في خواص الخليقة ومنها إيثار الحق على النفس والالتزام بميزان الشرع والغيرة على حرمة الدين ومقدساته ، فكان يقول لأصحابه :أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا ، كما هؤلاء بالمعاصي ولا يستحون من الله »[53].

والفضل في وصول الشيخ أبي مدين إلى هذه المرتبة العلية يعود إلى الله أولا وأخيرا ، وإلى استعداداته الفطرية وصفاته الخلقية ، فقد سبقت الإشارة إلى ميله الشديد إلى التدين وحبه المفرط للتعلم ومجالسة أهل العلم ، فكان للمشايخ الذين تتلمذ عليهم فضل كبير،وهم كثيرون ، وكلهم من خيرة ما أنجبت هذه الأمة فضلا وعلماو تقى وورعا،«وعرفوا بصفاء عقيدتهم وصدق حالهم وصلاح سيرهم ، فسار أبو مدين على نهجهم واقتفى آثارهم.. ونهل من علومهم واقتبس من أنوارهم»[54] . وقد ذكر التادلي في التشوف الكثير منهم مع إيراد تعريفات لهم ولبعض مشايخهم، نكتفي بذكر الشيخ الفقيه الصالح أبي الحسن علي بن حرزهم ، والشيخ الصالح أبي يعزى بن ميمون ، والشيخ الفقيه الصالح أبي عبد الله الدقاق ، والشيخ الفقيه الصالح أبي الحسن علي بن غالب القرشي[55].

كما أورد ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير وعز الحقير تراجم الكثير من العلماء ورجال التصوف ممن كانت له بهم صلات وثيقة وهم كثيرون أيضا أشهرهم الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبي علي الزواوي ، والشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله التاوذي والشّيخ الشّهير العالم المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي.[56]

فإذا كان هؤلاء هم مشايخه ومعلّموه،وأولئك هم إخوانه وصحبه،فكيف يكون تلامذته؟ وقديما قيل:كل إناء بما فيه ينضح ، وليس في إناء شيخنا إلا علم وتقى وورع فقد تخرج على يديه « ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم كرامة وبركة كما وصل إلى تربيته اثنا عشر ألف مريد ، واستفاد من علمه وزهده جلة

من كبار العلماء العارفين »[57] وأشهر أولئك التلاميذ الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي الذي تعلم على يدي الشيخ أبي مدين وظل وفيا لذكراه ، فحفظ لنا الكثير من أقواله وأفاض في ذكر وقائعه وكراماته في كتبه كـ (الفتوحات المكية ، مواقع النجوم،محاضرة الأبرار) وخاصة في موسوعته الصوفية الضخمة (الفتوحات المكية) التي لا يخلو سفر من أسفارها السبعة والثلاثين من ذكر لأبي مدين بشكل أو بآخر[58]. ومن تلامذته أيضا الشيخ أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري وغيرهم كثير من التلاميذ والمشايخ .

عاش الشيخ أبو مدين شعيب حياة حافلة مليئة علما وفكرا اكتسب خلالها كثيرا من العلوم العقلية والنقلية وخاض الكثير من التجارب في مجالات متنوعة صقلت موهبته وأذكت تجربته . إلا أن مؤلفاته قياسا بذلك النشاط وتلك الحياة الحافلة« تبقى قليلة، لأن الشيخ قد أمضى شطرا طويلا من حياته في مجال الدعوة والإرشاد كما تصدر إلى إعداد وتأهيل أجيال من الطلبة والمريدين،هذا ما عاق اتجاهه إلى التأليف »[59] وعلى قلّة تلك المؤلفات التي وصلت إلى يد القارئ ،إلاّ أنّها شكلت مجالا خصبا للباحث العربي في مجال التّصوف خاصّة،وهي« حسب علمنا لا تتعدّى ستة مؤلّفات وأكثرها لا يزال مخطوطا وهي:أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التّوحيد،وهو من أهم مؤلّفاته- مفاتيح الغيب لإزالة الرّيب وستر العيب، تحفة الأريب ونزهة اللّبيب،عقيدة أبي مدين،حِكم أبي مدين،رسالة أبي مدين.وقد تكون هناك مؤلّفات أخرى لا تزال مخطوطة هنا أوهناك »[60].

ظلّت حياة الشّيخ أبي مدين شعيب جذوة تُضيء دروب التّائهين،ونبعًا يُطفئ ظمأ المتعطّشين لنور الحقيقة،وظلّ إلى آخر يوم في حياته يعلّم تلامذته ومريديه إلى أن«وشى به بعض علماء الظّاهر عند "يعقوب المنصور"،وقال:إنّه يخاف منه على دولتكم ،فإنّ له شبها بالإمام المهدي،وأتباعه كثيرون في كلّ بلد.فوقع في قلبه وأهمّه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره ،وكتب لأمير بجاية بالوصية والاعتناء به وأن يحمله خير محمل فلمّا أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا معه فأسكتهم وقال لهم:"إنّ منيّتي قربت وبغير هذا المكان قدّرت ولابدّ لي منه،ولقد كبرت وضعفت ولا أقوى على الحركة فبعث الله لي من يحملني إليه برفق ويسوقني إليه أحسن سوق ،وأنا لا أرى السّلطان وهو لا يراني:وطابت نفوسهم وذهب بؤسهم وعلموا أنّها من كراماته فارتحلوا به على أحسن حال حتّى وصلوا حوز تلمسان،فبدت رابطة العبّاد فقال لأصحابه: ما أصلحه للرقاد قال "أبو علي الصّواف" رحمه الله،لمّا احتضر الشّيخ أبو مدين استحييت أن أقول له أوصني فأتيته بغيري وقلت له:هذا فلان فأوصه،فقال سبحان الله! وهل كان عمري معكم كلُّه إلاّ وصيّة؟ وأيّ وصية أبلغ من مشاهدة الحال؟.قال:وقال بعضهم:آخر ما سمع منه الحق،وقال بعضهم آخر ما سمع منه الله الحق،وقال بعضهم الله الحي.قلت:وأيًّا ما كان فهي خاتمة حسنة ومرتبة عليّة مستحسنة ظهر فيها صدق قول رسول الله ﷺ :يموت المرء على ما عاش عليه. »[61].

هكذا كانت نهاية القطب الرّباني الشّيخ أبي مدين شعيب، حياة حافلة بالعمل والاجتهاد والإخلاص لله إلى آخر يوم. فلم يغرغر حتّى تقطب رضي الله عنه،كما رَوَى عنه تلميذه ابن عربي.فرحمه الله وطيّب ثراه ونفعنا بعلمه.

---

(1) محمّد عبد المنعم خفّاجي: الأدب في التراث الصّوفي،مكتبة غريب، القاهرة،ص07.
(2) عاطف جودت نصر : شعر عمر بن الفارض (دراسة في فن الشعر الصوفي)،دار الأندلس ، لبنان،ط1/1982،ص13 .
(3) ينظر : المرجع نفسه ص14.
(4) عاطف جودت نصر : شعر عمر بن الفارض (دراسة في فن الشعر الصوفي): ص14.
(5) محمد عبد المنعم خفاجي : الأدب في التراث الصّوفي،ص07.
(6) عرفان عبد الحميد فتّاح : نشأة الفلسفة الصّوفية وتطوّرها،دار الجيل، بيروت،ط1/1999ص139.
(7) السّابق : ص137.
(8) عاطف جودت نصر : شعر عمر بن الفارض (دراسة في فن الشعر الصوفي)، ص12.
(9) نفسه : ص11.
(10) محمد سيد الجلينيد : من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة،مكتبة الزهراء ، القاهرة ،1990،ص36 .
(11) عرفان عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها،ص131 .
(12) نفسه : ص131/132 .
(13) عرفان عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها،ص132 .
(14) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري : الرسالة القشيرية،دار الكتب العلمية،ط1/ 1990،ص312 .
(15) عاطف جودت نصر : شعر عمر بن الفارض (دراسة في فن الشعر الصوفي)،ص 14.
(16) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية ، بيروت 2001/ ص12.
(17) نفسه: ص14 .
(18) نفسه: ص12.
(19) نفسه: ص12.
(20) السّابق: ص10.
(21) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، ص10.
(22) موسوعة الفلسفة الإسلاميّة وأعلامها: تح،يوسف فرحات، النّاشر ترادكسيم ،ص45.
(23) عرفان عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية وتطوره،ص134.
(24) نفسه : ص135.
(25) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف،ص136 .
(26) عبد الرّحمان بن خلدون : المقدمة،دار القلم،بيروت،ط5 /1984 ص467.

[27] عرفان عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها،ص140.

[28] أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني :عنوان الدّرايـة،تح:رابح بونار، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع،ط2،1981ص56.

[29] العربي بن مصطفى الشّوار : ديوان أبي مدين شعيب ، مطبعة الترقي، دمشق ، ط1،1938ص44.

[30] عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث، منشورات المكتبة العصريّة ، بيروت ،ط3/دتط، ص81.

[31] أبو يعقوب يوسف بن يحي التّادلي : التّشوف إلى رجال التّصوف،تح:أحمد التوفيق،مطبعة النّجاح الجديدة،الدّار البيضاء،ط2/1997 ص320.

[32] نفسه : ص320.

[33] السابق : ص322.

[34] أبو يعقوب يوسف بن يحي التّادلي : التّشوف إلى رجال التّصوف: ص320.

[35] يحي بوعزيز: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط،دار الغرب للنّشر والتّوزيع،ط2/2003،ص79.

[36] السابق :ص322.

[37] ينظر التّشوف إلى رجال التّصوف: ،ص322 .

[38] السابق :ص321/320

[39] نفسه : ص321 .

[40] أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي : التشوف إلى رجال التصوف : ص322 .

[41] أبو مدين شعيب : الديوان،جمع وترتيب : العربي بن مصطفى الشّوار، مطبعة الترقي،دمشق،ط1،1938ص08 .

[42] يحيى بو عزيز : مدينة تلسان عاصمة المغرب الأوسط،ص81 .

(43) الطاهر علاوي : العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب،دارا لأمة للطباعة والنشر،الجزائر،ط1،2004 ص22.نقلا عن : عبد الحميد حميدو التلمساني: السعادة الأبدية، المطبعة الجديدة،فاس1995ص 51.

(44) السابق : ص 22 .

(45) ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني : أنس الفقير وعزُّ الحقير،المركز الجامعي للبحث العلمي،الرباط،1965،ص17.

(46) نفسه: ص17.

(47) التّادلي : التّشوف إلى رجال التّصوّف، ص325.

(48) محمد الطّاهر علاّوي، العالم الربّاني سيدي أبو مدين شعيب،ج1ص40،نقلا عن: يوسف بن إسماعيل النّبهاني.جامع كرامات الأولياء، دار الكتب العربية الكبر، مصر،ص99.

(49) ابن قنفذ : أنس الفقير وعز الحقير، ص 03 .

(50) نفسه : ص 04.

(51) ابن قنفذ : أنس الفقير وعز الحقير:ص 04.

(52) نفسه : ص03 .

(53) محمد الطاهر علاوي : العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ،ج1،ص31 .

(54) السابق : ص43 .

(55) ينظر التادلي : التشوف إلى رجال التصوف، ص213.168.156.

(56) ينظر: ابن قنفذ ، أنس الفقير وأنس الحقير،ص21،22،23.

(57) محمد الطاهرعلاوي: العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ،ج1،ص53 .

(58) ينظر : المرجع نفسه، ص54 .

(59) محمد الطاهر علاّوي: العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب : ص28 .

(60) السابق : ص29.

(61) ابن قنفذ : أنس الفقير وعزّ الحقير، ص102 /103.